رحلة مشبوهة من الهند إلى إنجلترا

صورة عن الخليج في أوائـ

كيف شوّه الرّحالة الإنجليز

هذا التقرير ليس وصفا لاحد الرحالة كما يدعى مؤلفه الملازم الانجليزي وليام هايد . وانما هو تقرير اعده احد الضباط الانجليز وهو تقرير يؤكد في كل حرف منه ان هذا الضابط كان جاسوسا وان المهمة التى كان مكلفا بها هي رصد القلاع وجمع اكبر قدر من المعلومات عن موانىء المنطقة والقوى البحرية في الخليج . التقرير لا ياتى بجديد عن تاريخ المنطقة ولكن القيمة التى دفعتنا لنشره هي عرض صورة من التقارير التي كان يكتبها الموظفون الانجليز منذ اكثر من ١٧٠ عاما وكيف فهموا المنطقة من وجهة نظر خاطئة وكيف شوهوا تاريخ الكثير من المدن والقرى وكيف كان ابطال البحر العرب الذين يدافعون عن مياههم قراصنة من وجهة نظرهم . ذلك لأن هذه التقارير لم تكن فقط السبب في هجوم الكثير من القوى الطامعة بعد ذلك على المنطقة وانما كانت للاسف احد المصادر للكتب والمؤلفات التى كتبت عن المنطقة فيما بعد ونقلت الكثير من الاخطاء التى وردت فيها دون محاولة للتحليل او حتى للفهم .

[الوثيقة]

ل القرن التاسع عشر

تاريخ الخليج بأفكارهم المغلوطة؟

بقلم الملازم وليام هايد

غادرت ميناء بومباى يوم السبت ٢٦ اكتوبر ١٨١٦ مودعا المشاهد المألوفة التى تركتها ورائى والتى بقيت اتذكرها طويلا بأحاسيس الحزن والبهجة معا ورغم انى كنت متوجها الى بلادى واهلى تاركا بلدا غريبا الا انى ذكرت عددا كبيرا من الاصدقاء المخلصين الصادقين مما اصابنى بموجة من الحنين الاليم مشوبا بآمال عريضة في المستقبل .

وكانت مغادرتى مفاجئة بصورة لم اكن اتوقعها . وعندما اعددت نفسى مبكرا للسفر الى البصرة بطريق البر واضطررت للتخلص من عدة امتعة شخصية لتخفيض الوزن واقتصرت على اخذ بعض الملابس فقط وقمت بفحص دقيق للاسلحة المخصصة للدفاع عن النفس ظننت بأنى اكملت كافة الترتيبات اللازمة للسفر ولكن ظهر ان بعض الترتيبات يأخذ وقتا اطول مما كنت اتوقعه ويتطلب تذليل صعوبات كثيرة ومضنية وقد دهشت عندما عرفت بأن السفينة سوف تغادر في الساعة العاشرة من نفس اليوم ولما خرجت من خيمتى رأيت السفينة «فضل كريم» بعيدة عن الشاطىء ووجدتنى في موقف حرج جدا اذ شعرت بضرورة اختيار ربان السفينة باهتمام بالغ بدلا من الاهتمام بنوع السفينة وهذا درس يجب ان يتعلمه المسافرون الآخرون جيدا لاننى سبق ان تعرضت لعدة مشاكل ومتاعب

بسبب اختيارى هذه السفينة مرات عديدة ،لقد سبق لي ان تلقيت اخطارا بأن موعد السفر سيكون يوم الاثنين القادم وقد فوجئت بتقديم الموعد دون مبرر او سبب مقنع فاندفعت الى اتمام الاجراءات الرسمية المطلوبة بسرعة فائقة . وساعدنى صديق حميم لى في الحصول على الشهادات الرسمية من الجهات المختصة مثل شهادة تصفية الحسابات وشهادة الهوية الشخصية الخ .

وركبت زورقا من الزوارق الصغيرة لتوصيلى وتوصيل امتعتى الشخصية للسفينة وهذا نظام يتم تحت اشراف الكابتن «كيس» وهو رجل متعاون ويتمتع بخلق كريم وتتميز هذه الزوارق بمتانتها ومهارة طواقمها وسرعة انجاز مهامها بأمن وامان ويمكن اعتبارها احسن ما يوجد في المنطقة كلها وقد وصلنا الى السفينة بعد حوالى اربع ساعات في البحر ولم تكن الشواطىء مرئية عندما اقتربنا من السفينة . وكما عرفت فيما بعد فإن ربان السفينة لم يكن على علم بما يدور حوله او مستعدا ليرحب بنا على متن السفينة حتى انه لم يكن يعرف سببا لوجودى هناك وتجاهل اشاراتنا له وعلى كل حال عندما ركبت السفينة اخيرا وتعرفت عليه اعتذر لى ودعانى الى كابينته وقدم لى الشراب .

وفي صباح اليوم التالى ٢٧ اكتوبر ١٨١٦م اتيحت لي الفرصة لأرى اوضاع السكن وسلوكيات الطاقم الذي تكون من عدة جنسيات ومدى الانضباط بين أفراده ونظرا لان السفينة كانت سفينة عربية فلن يواجه القارىء في بومباي أو الخليج أية صعوبة في تصور تجهيزاتها واقتصر على القول بان السفن التجارية العربية المستخدمة في الخليج كان يتم تصنيعها وتسييرها طبقا للنظم الانجليزية ويقودها ربان أوروبي بمساعدة شخص أو شخصين وكان هذا يضمن لها استخدام العلم الانجليزي والحماية الانجليزية مع ان صاحب السفينة عربي وعلى الرغم من ان السفينة العربية كانت أقل في امكانياتها من السفن التجارية الغربية المماثلة إلا أن ترتيبات السكن على متنها كانت مريحة اكثر وذات مزايا متنوعة .

السفينة «فضل كريم» سفينة عربية ذات حمولة قدرها ٣٥٠ طنا وعليها ٥٠ مستخدما في شتى المهن و٩٠ مسافراً منهم ٣٠ فارسيا في غاية النشاط والحيوية والباقون من اجناس مختلفة كالعرب والاتراك واليهود والنصارى من حرف ومهن متنوعة فمنهم التجار وزوار كربلاء وتجار الخيل والعساكر والعبيد وكان هؤلاء الناس قد وصلوا الى بومباي من شتى أنحاء العالم وكانوا في طريقهم الى أماكن مختلفة أيضا .

لا أريد ان اذكر التفاصيل المملة عن الروتين اليومي واقتصر على ملاحظاتي الدقيقة عن سلوك الانسان

لأن دراسة الانسان في الحقيقة هي دراسة الانسانية جمعاء وقد كان عندي فراغ كاف لاتولى هذه الدراسة المتنوعة الأبعاد . لقد وجدت بعد وقت قصير ان المسئول عن الأثاث والشحن اسمه سيد قادر ومعه اثنان من المعاونين الاتراك ذوي ذكاء وخبرة فوق العادة وكان لديهم معلومات وملاحظات قيمة ومتنوعة وكان واحد منهم يتكلم الفرنسية بطلاقة ويتظاهر في تصرفاته بأنه أوروبي واكتشفت فيما بعد ان كثيراً من الناس يمارسون هذا التظاهر ويتجول بيننا عدد من الناس من هذا النوع بحرية كاملة وهم ذوو لحية وعمامة ويتظاهرون بانهم مسافرون وليسوا مستخدمين في السفينة . ولا يعرف أحد في السفينة حسابات وقياسات خط الطول وعرفت من ربان السفينة بأنه أمر غير ضروري لأن الشواطىء العربية تبرز للعيان وتحدد له المسار دون تعب . وهكذا أمضينا ١٢ يوماً دون مفاجآت تذكر ما عدا رؤية قارب أوقاربين قالوا انهما للقراصنة ولا اعرف سببا لاطلاق هذا الاسم على القاربين وهل كانا للقراصنة فعلاً أم لا ، وحسب توقعات ربان السفينة فقد ظهرت الشواطىء العربية في السابع من نوفمبر ورأينا أمامنا عند طلوع الشمس أحد المعالم المعروفة المسمى «ثغرة الشيطان» على بعد ٦٠ ميلاً من مسقط وهي الميناء المقصود وكان الموقع مضاداً للريح ولم يكن هذا الوضع ملائماً من الناحية الملاحية وأظنه كان السبب لتسمية المكان «ثغرة الشيطان» باعتبارها رمزاً لسوء الطقس ورداءة الرياح والعواصف التي يتبعها الهدوء التام .

إنني مقتنع بأهمية بذل الجهد وكسب القدرات والحملات الاستطلاعية لاحراز أي نجاح في أي مجال ، فالمسافرون احيانا يجدون أنفسهم مضطرين الى البقاء على سفن تجنح في مياه غير آمنة اذ تقع هذه الاماكن خارج نطاق خط سير السفينة . وقد وجدنا انفسنا مضطرين الى البقاء في مياه «ثغرة الشيطان» من ٧ الى ١١ نوفمبر مما اضعف معنوياتنا وشعرت بأنى مثل «السندباد» اتمنى ان تأتى معجزة وتنقذنا من هذا الموقف الحرج . وقد حدثت المعجزة فعلا وتمكنا مواصلة السير صباح يوم ١٢ نوفمبر .

وسمعت تفاسير كثيرة لاسباب تعرضنا لهذه المشاكل اثناء حركتنا المتعرجة التى نقلتنا خارج نطاق حماية الخليج المذكور لكن الاتراك لا يفكرون بطريقتنا وفي رأيهم ان السبب راجع لسوء حظنا وأنه يعود الى الجرائم والذنوب التي ارتكبها واحد ما على متن السفينة من بين افراد الطاقم أو الركاب .

وقال فضل كريم بأنه عقاب فرضه الرسول الكريم (ﷺ) على الجاني واقترح الوضوء على الجميع في صباح ١٢ نوفمبر . وكان البحر قادراً على

تنظيف المعاصي مهما كان حجمها وقال الاتراك بانه ما دام الجاني موجوداً على متن السفينة فقد تتعرض للكوارث المفاجئة وعندما تحسن الطقس في ١٢ نوفمبر شاهد الاتراك عربياً ويهودياً يغيبان عن موقع سارية المركب فاتهموهما بالذنوب والمنكرات . وقال واحد من الأتراك وهو يمر بيده على لحيته : «ان التزامن بين مغادرة الاثنين وتحسن الطقس يجعلهما حدثان مترابطان ويثبت اجرام الرجلين» وكان هو التفسير الوحيد للحادث الذي قدمه هذا الرجل المسن وأصبح الحادث نفسه نسياً منسياً بعد بضع ساعات .

ووصلنا الى مسقط في ١٢ نوفمبر ظهراً واثناء الدخول الى الميناء رأينا ٢٥ مركبا في طريقها الى بومباي تقودها الفرقاطة العربية «كارولين» وعلى متنها ٤٠ مدفعاً .

كما كانت هناك سفينتان كبيرتان رستا في المضيق وهما انجليزيتا الصنع بينما كان يتم تفريغ حوالي ٣٠ أو ٤٠ مركبا من شحناتها المكونة من التمور والملح والارز والبضائع المختلفة . واضطرت سفينتنا للبقاء في الميناء عدة ايام كي تتمكن من تفريغ شحنتها القيمة. وعلى الرغم من احتجاج أفراد الطاقم قرر ربان السفينة أن يرسو بها في مكان يقع في مدى المدافع الشمالية وهو قرار خاطىء كما ثبت من الأحداث التي وقعت فيما بعد .

تقع مسقط على الساحل الشرقي للجزيرة العربية على خط العرض ٨ر٣° ٢٣ شمالاً وخط الطول ٧ر٢° ٥٧ر شرقا وهي في عمان الخصبة ، وجاء ذكرها في كتابات «اريان» وكان الاغريق على علم بها إلا أنها لم تكن ذات أهمية حتى احتل الفرس هرمز عام ١٦٢٢ ولجأ اليها عدد كبير من سكان هرمز ومنذ ذلك الوقت نالت شهرتها كميناء ممتاز وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً وتوفرت لعدد كبير من السفن ميزات ميناء واسع ذي سعة كبيرة . وكانت عمان بلاد العلم والمعرفة والقصص الرومانسية وأشياء غريبة مما أثار في قلبي روح الاستطلاع فنزلت الى الشاطىء راكباً زورقاً خفيفاً وكانت الروبية عملة مرحبا بها لدى العبيد الافريقيين الذين كانوا يجدفون في هذه الزوارق بالاجرة .

وعندما نزلت الشاطىء وجدت كلا من دار الجمارك والقصر والمنطقة المجاورة مكتظة بالعرب من كل مكان وقبيلة ومعهم اليهود والهندوس والبلوش والاتراك والافريقيون . وكل منهم يحمل سلاحاً . وكان العربي يحمل حسب تقاليد قبيلته نوعاً من الرماح والجندي البلوشي العاري الصدر نوعاً من السكين المنحني أو السيف ، والبدوي يلبس غترة مخططة حول الرأس وهو خشن في منظره أو مراقبته وعيناه ملتهبتان سريعتا النظرات ووجهه قلق ويبدو

كأنه السيد على ما يراه حوله دون منافس وهو خارج القانون او الانضباط ويتناثر شعره الاسود مع الرياح مما يزيد في خشونة منظره.

وتجولت بين هؤلاء الناس المتعددي الالوان والاجناس والصفات وأنا اجنبي غريب يتجول بينهم وكل واحد منهم مزود بسلاح سبق ان استخدمه بعنف في مناسبات عديدة . لكني لم أتعرض لأدنى تصرف غير لائق منهم قط حتى صادفت الارقاء الافريقيين الذين كانوا يعملون في حارة وراء المدينة . واعتبر هؤلاء بانني رجل غير مسلح ووجهوا اليّ نظرات وكلمات حقيرة مهينة ولما أشرت الى المسدس الذي كان مخبئا في حزامي لزموا الصمت وكثيراً ما يتعرض الأجانب غير المسلحين الذين يصادفون هؤلاء العبيد خارج حدود المدينة لاعمال النهب والاغتصاب .

وعندما رأى العبيد بأنني رجل مسلح يستطيع ان يدافع عن نفسه ويعرفني بعض الناس تجاهلوني وواصلوا اعمالهم . وقد رجعت الى مكتب وكيل السفينة في المدينة كي احصل على خدمة مرشد ومترجم ليرافقاني.

وسرعان ما رتب لي الوكيل «غلام انداس» مرشدا وخادما وواصلت جولتي في البلد معهما ظهراً فزرت السوق مرة ثانية وكذلك قريتين صغيرتين ومسجداً سمح لي بالدخول اليه دون اعتراض خلاف التقاليد المتبعة في الأماكن الأخرى وينتمي المساقطة الى مذهب الاباضية أو بوجاسية (ويسميهم البعض الخوارج) والاباضيون متسامحون الى درجة كبيرة وبسطاء في سلوكهم وسيرتهم ولا يبدون أي تفرقة بين دين وآخر ولا يفرقون بين آل البيت النبوي .

ولما رجعت مساءً عن طريق سوق الارقاء وجدت ان العبيد يباعون مرات أسبوعياً بواسطة المزاد العلني أو المقاولات . ووقفت عند محل يتاجر في الرقيق . ورأيت حوالي ٢٠ أو ٣٠ عبداً افريقياً جاءوا عبر الصحراء من زنجبار مصطفين على جانبي السوق وظهر بأنهم روضوا أنفسهم على قبول وضعهم ولم يكونوا يلبسون الا قطعة قماش حول الوسط فقط استجابة لرغبة أسيادهم وزبائنهم ورأيت الزبائن يمشون أمامهم ويختبرون أجسادهم وجلودهم بأصابعهم بدقة بالغة ... وشاهدت عربياً طويل القامة يعرض صبيا عمره ١٠ سنوات أو ١٢ سنة ويصرخ بسعره بصوت جهير مع مواصفاته . وعندما اقتربت منه قال باللغة الهندية «٤٠ دولاراً» ولك كل الحقوق منه أما أن تطعمه أو تجوعه أو تتبناه ولداً لك . ثم خاطب الصبي وصرخ في وجهة «ارفع نظرك يا شرير ! الفرنجي سيشتريك وهو رجل غني ويملك ثروة كبيرة» فرفع الصبي نظره وهو يمسك يد صاحبه . واشتراه أخيراً عربي مسن . ورأيت هذا

العربي يفحص اسنانه أيضاً وسمعت ان الأسنان تتعرض لعملية اعداد بواسطة برد تعدها لاكل لحوم البشر .

ان ذكر هذا الموضوع طبعاً يلفت النظر الى وجود ظاهرة الرقيق وآثارها في البلاد المسلمة التي زرتها لانني اتيحت لي الفرصة لأدرس جوانب عديدة لحياة العبيد في البيوت وسلوكيات اسيادهم في الأماكن المختلفة . وفي مسقط رأيت ان العبيد يتلقون دون شك معاملة لطيفة وانسانية وكانت أشق الاعمال التي يقومون بها هي تسيير القوارب الصغيرة لنقل الركاب الى السفن وهو عمل يعطي قسطاً من الراحة وليس بشاق عليهم . ويعيش العبيد في مسقط مع اسيادهم ويأكلون ويشربون معهم ومثلهم ولا يعرضون للبيع مرة ثانية الا في حالات سوء سلوكهم أو سوء تصرفهم وفي الحقيقة ان كان العبد صادقاً وفياً فان سيده يقدره تقديراً بالغاً ولا يفارقه الا في حالات استثنائية ولا يسلمه الا لصديق حميم له على المستوى الشخصي .

١٣ نوفمبر ١٨١٦م : لم اعرف متى نغادر مسقط فقررت ان استغل الوقت المتاح لي بأحسن طريقة وأزور الامام في اليوم التالي ثم اقوم بزيارة المنطقة الداخلية اذا حصلت على حرس شخصي لهذا الغرض كذلك قررت زيارة بعض الحدائق والعيون الحارة ذات الفائدة الصحية في اليوم التالي أي ١٤ نوفمبر ١٨١٦م . ولم يمض وقت طويل حتى اكملت الترتيبات المبدئية ووعدني التاجر الهندي بأنه سيزودني بالملابس اللازمة ومرشد وحصان وبعض العملة المحلية مما يضمن لي الأمان والحماية الا اذا قررت الاعتماد على قوة السلاح واستشرت مضيفاً محلياً . فنصحني بالاحتراس والحكمة بدلاً من السلاح والقوة ولما نزلت الشاطىء في ١٤ نوفمبر صباحاً وأنا في زي رسمي تلقيت احتراما واهتماما من الناس أكثر مما تلقاه منهم ربان السفينة ولم أشعر باي صعوبة في الوصول الى الامام وافسح الخدم الطريق لي حيث كان الامام جالسا في شرفة مفتوحة يهتم بالأعمال الرسمية وحوله الوكلاء والكتاب وعدد من العبيد . كان الامام هو السيد سعيد ، وهو في خريف العمر وحسن المنظر وحسن السلوك وكان قد عرف ممن حوله مسبقاً باني ضابط بريطاني كما كان على علم بمهمتي فقام من مقعده ليرحب بى عند دخولي واستفسر عن صحتي واحوالي الشخصية كالمعتاد لدى المثقفين وأضاف قائلاً بانني لم اكن الضابط البريطاني الوحيد الذي زاره قبل سفره بل لقي عدداً منهم اما عند البداية واما بعد السفر عند العودة وذكر اسماء هم واثناء الحوار الذي جرى بيني وبينه تطرق الى كلام ودي لطيف غير رسمي وامتدح الانجليز بقصد ارضائي وذكر مدى اعجابه

بقوة الانجليز وهيبة البحرية الانجليزية وأراد بهذا الكلام ان يقنعني بأنه واسع الاطلاع على هذه الأمور ثم اشار الى حجز سفينة عربية من قبل الانجليز وهي تنقل العبيد وقال بأنه أمر بسيط وليس له أي أهمية ويمكن تسوية الموضوع بسهولة (كان ينتظر ملاحظاتي حول تسوية الأمر) لكني لم اتقدم بأي تعليق وأبديت رغبتي في المغادرة فودعنى بحفاوة بالغة متمنياً لي دوام التوفيق والعافية وأمان الله ، وطلب منى ان أخبر الشركة (السلطات الانجليزية) عن اللقاء الذي تم بينى وبينه وانقل تحياته للأمير جورج .

عندما ذهبت الى التاجر الهندي وجدته يتكلم مع اثنين أو ثلاثة من العرب وقدم واحداً منهم كمرشد يمكن لي الاعتماد عليه وأضاف قائلاً بأنه سيزودنى بثلاثة خيول لمدة ثلاثة أيام مقابل ٢٠ قرشا وهكذا بدأ التعامل بيننا . وجاء الشخص المذكور بثلاثة خيول فعلاً ركبنا الخيول وانطلقنا في رحلة مضنية غير مثمرة وفاشلة . وكانت المنطقة الداخلية جرداء وكئيبة وبائسة للغاية وسواحلها صخرية دون أدنى اثر لاعشاب أو أشجار أو نبات حول مسقط باستثناء بعض أشجار النخيل بالقرب من آبار الماء الواقعة في جنوب وغرب المدينة . ولما عبرنا الجبال التي تحيط بوادي مسقط تغير لون الصخور الى أرض حمراء صلبة قاحلة واستغرب العربيان اللذان كانا يرافقانني باني لا أفهم حتى كلمة واحدة من كلامهما .

وعقب قطع ١٠ أميال وجدنا أنفسنا على أرض مرتفعة مع أننا لم نجد منحدرات صخرية مفاجئة كانت تعرقل حركتنا الى الآن ومررنا ببعض الخيام والأكواخ قبيحة المنظر على الجانبين ووصلنا الى قرية صغيرة حيث كانت بعض النساء يعملن دون حجاب في العراء وأخذن في الجرى عندما شاهدننا وهن يصرخن بصوت جهير «اللصوص ، اللصوص» وبكل صراحة لم يكن منظرنا يجلب احترام الناس خاصة مظهر الرجلين اللذين كانا معي فهما في ملابس ممزقة وقذرة للغاية ورغم ذلك تساءلت يا ترى هل هذا التصرف يدل على كرم ضيافة القبائل الذي سمعنا عنه ؟ ونحن لم نظهر في سلوكنا أو تصرفنا بأن نوايانا غير شريفة ولم يزد عددنا على ثلاثة فقط وعلى كل تذكرت ان النساء على العموم يبدين الخوف من الاعتداء الجنسي أو على الأقل يتظاهرن بالخوف كرد فعل متوقع منهن فانتظرنا حتى خرج بعض الرجال بعد ان سمعوا صرخاتهن وعقب حديث قصير بيننا سمحوا لنا بالترجل من خيولنا حتى نأخذ قسطاً من الراحة بعد سفر دام أربع ساعات بسرعة بطيئة جداً وظننت ان هذا المكان يوفر لنا فرصة للاستراحة وبعض الأكل كي نستعيد حيويتنا ونشاطنا لحد ما لكنى أصبت بخيبة الأمل عندما لم يقدم لنا حتى

الماء ليطفىء ظمأنا وكما يبدو فإن الرجلين اللذين كانا معي لم يكن عندهما أي استعداد لضرورة الراحة أو الأكل والشراب وتعاملا معي كانني كائن أصم وأخرس وحاولا أن يكلماني بالاشارات والرموز دون استخدام كلمة واحدة . (اظن انهما لجآ الى هذه الحيلة قصداً ليخدعا القرويين) . وقد تصرفت طبقا لهذه الظروف ولم انطق على الاطلاق خوفا من رد فعل القرويين اذا اكتشفوا هذه الحيلة .

وبعد حوالي ساعة من الجلوس والقيام في العراء قام عجوز ليرافقنا على قدميه وكانت لحظات الغروب تقترب بسرعة ولم أستطع ان اسألهم عما هو المقصود الآن لاني كنت اعرف كلمات مفردة فقط وليست جملا ولم استطع ان أسألهم عن المكان الذي كانوا يتوجهون اليه والقصدمن المغامرة العديمة الجدوي المقبلة . وما كان بيدى الا أن اعتمد على أمانة المرشد الذي رافقني وكلما تقدم الليل زاد القلق وندمت على تصرفي في الاندفاع الى مغامرة محوطة بالمصائب دون أدنى احتمال لمصادفات سارة أو مفاجئة قد تعوضني عنها واصابتني خيبة الأمل والضجر عندما لم أرحولي الا العزلة والفقر وعلى كل واصلنا الركوب لحوالي ٦ ساعات حسب تخميني لأنني تركت ساعتي في السفينة خوفاً من الحوادث المحتملة واعتمدت على التخمينات فقط . وكانت معنوياتي منخفضة جداً بسبب الجوع والعطش والتعب وفجأة وجدنا أنفسنا أمام قرية أكبر من القرية السابقة واخبرني المرشد باشارات باننا سوف نمضي باقي ساعات الليل فيها .

ورقدت على الأرض الصلبة دون أكل أو شرب أمام مبنى كبير مربع علمت فيما بعد بأنه لأمام مسقط .

ولما استيقظنا في الصباح حاولت جذب انتباه مرافقي بأني عطشان وفي أشد حاجة الى الماء فاشرت الى فمي عدة مرات وتمنيت ان يجلب الماء والتمر فجاء بهما فعلاً وجاءت عجوز بقطعة خبز من الشعير سوداء اللون وقدمت لها قرشاً واحداً لكنها رفضت قبوله ولما طلعت الشمس وجدت القرية أكبر مما كنت اتصورها وكان أمام المبنى حوض مزود بماء من عيون كانت حوله كما كانت في ضواحيها اشجار النخيل والرمان كانها بيت بحديقة حوله وبعد ان تفقدت الموقع واكلت ما قدم لي وأطفأت حبي للاستطلاع جاء مرافقي بالخيول لمواصلة ركوبنا غرباً لكنني أشرت له بحزم بعدم رغبتي في مواصلة الركوب أكثر من ذلك وسرت بعض الأقدام في اتجاه معاكس كي أعبر له عن تصميمى على العودة من حيث جئنا . ورجعنا بالفعل بطريق أقصر استغرق ثماني ساعات وكان الطقس حاراً رطباً وكنت منهكاً ومرهقاً الى أقصى درجة دون أكل أو شرب أو نوم ووصلنا الى حيث بدأنا مغامرتنا الشاقة في المساء

التالي .

وفي ١٦ نوفمبر ١٨١٦م في الساعة الثامنة صباحاً وصلت سفينة من البصرة وهي سفينة عربية تسمي «خسروي» حمولة ٣٠٠ طن وجاء ربانها الى متن سفينتنا ليستلم الرسائل الموجهة له من بومباي ولينقل لنا اخبار البصرة وانتهزت الفرصة لزيارة الشاطى ثانية معه وفي قاربه على الرغم من انني كنت لاازال اشعر بالتعب وخيبة الأمل الناجمة عن مغامرتي الأخيرة . وبدا ان سوء الحظ كان يطاردني فعندنا بدأت جولتي في السوق اشتدت الرياح وتحولت الى عاصفة خطرة وكنت قلقاً على كيفية العودة الى السفينة لأنني ما كنت واثقاً بكفاءة قائدها وكان بالامكان ان يتركني على الشاطىء ويبحر فاستأجرت قارباً مقابل دولار كامل كي يوصلني الى السفينة ولكن تلاطم الأمواج في البحر كان مخيفاً ورفض صاحب القارب قائلاً بان المد والجزر الشديد يشكلان خطراً كبيراً على سلامة القارب الصغير وكلما زاد الخطر زاد قلقي ورغبتي في ان أعود الى السفينة في أقرب وقت ممكن فاستخدمت كافة أساليب التهديد والتعويض لأحث العبيد على الابحار حتى حاولوا ذلك لكن الظروف كانت قاسية وكنا نكاد نغرق لولا النجدة التي وصلت من السفينة «خسروى» من حسن حظنا .

وركبت اللانش الذي جاء لمساعدتي ووصلت الى سفينتي بصعوبة كبيرة وعندما صعدت الى السفينة وجدتها في حالة يرثي لها بسبب اختيار ربانها موقعاً غير ملائم تماماً فقلت لنفسي «كم كان حسناً لو بقيت على الشاطىء ليتني عرفت وضع السفينة قبل ان احاول الوصول اليها بالقارب ، وللعلم فان ربان السفينة كان مصراً على اختيار مرسى السفينة منذ البداية وكان قد فقد اعصابه الآن كئيباً وحزينا للغاية ونموذجاً مجسداً لليأس وفقدان الأمل وينوح على حظة السيء والخسائر المرتقبة التي سوف يتكبدها وكانت السفينة تنجرف نحو الصخور دون أن يستطيع احد التحكم فيها وواجهت خطراً محققاً فعلاً وكان زميله واقفاً معه وهو يدخن ولا يبالي بما يحدث حوله وكان يعكس نوعاً من الثقة والأمل كبحار محنك . وكانت المرساة قد تحركت من مكانها وأمسكت في موقعين أو ثلاثة مواقع وكان من المحتمل ان تمسك في موقع ما وتستقر . وقدم الرجلان مثالين متباينين في مواجهة الخطر ولولا الملابسات الخطرة لهذه الدرجة لكان الوضع يثير الضحك . قال زميل الربان : «لا يمكن لنا أن نعمل شيئاً ما في هذه الظروف لأنه لايمكن رفع المرساة من مكانها وليست هذه أول مرة أواجه مثل هذا الموقف بل هي المرة الثالثة وبدأ يرد على اسئلتي بمنتهى الهدوء واللامبالاة متجاهلاً الخطر الذي كنا فيه وذكر كيف أنه قرر

الابحار هذه المرة والقصد منه وكيف يريد أن يتصرف فيما بعد وكيف نجا في المرات السابقة وتفاصيل خط العرض وخط الطول والاتجاة وسرعة السفينة الخ وهو ينفث الدخان من حين الى آخر ثم توقف فجأة وقال «تماسكت المرساة الآن هلابنا» وجرى الى الوراء وهو يمسك الحبل بنشاط وسعادة وحيوية تامة وحركة سريعة ذكرت هذا الحادث بالتفصيل تقديراً لهذا الملاح الشجاع . فقد شاهدت هذا الملاح يلزم الهدوء والاعتماد على النفس بشجاعة في مواجهة خطر بالغ ممثلاً البواسل والأبطال الذين تدوم ذكرى أعمالهم الجليلة ومثابرتهم الى الأبد وكنا في ذلك الوقت نمسك بخيط ضئيل من الأمل تحت تصرف القضاء والقدر الذي قد يقضي بالموت أو الحياة وأن فترة انتظار المجهول مخيفة أكثر من مواجهة الموت نفسه وقد نجونا من الكارثة مؤقتاً لكننا قضينا الليلة في خوف وقلق حول مصيرنا فلم تكن عندنا الامرساة واحدة وكانت الصخور قريبة جداً من مؤخرة السفينة ومع كل حركة في المياه حولنا كانت سفينتنا ترتفع الى مستوى الصخور العلوية وتنزل الى الصخور السفلية تحت الماء على التوالي مما يهدد سلامة السفينة ومن عليها وبعد مضى ساعات في هذه الاوضاع غير المستقرة عاد الهدوء بطلوع الفجر وطلعت الشمس ساطعة على ظهر المركب غير ان البحر كان لا يزال ثائرا حولنا وعاد معظم ركاب السفينة الى ظهر المركب باستثناء المملوك الذي كان يعرف عدة لغات والسبب في عدم حضورة يرجع الى تعليمات تلقاها من البصرة بالبقاء في موقعة حتى موعد مغادرة القافلة التي كانت قد دخلت الى مخا أو القصير وذلك كان وشيكاً .

وقبل أن نغادر مسقط كان يجب علينا أن ننظر اليها كمستودع رئيسي في الخط التجاري على الرغم من ان صادراتها اقتصرت على التمور من نوع ردىء وسبعة أو ثمانية آلاف كيس من البن وكمية من الكبريت والأصباغ وبعض الخيل والجمال وسبائك ذهبية أو فضية مقابل مشترياتها من البضائع الهندية. وعدد سكان مسقط متغير من حين لآخر وهي مدينة نشطة جداً وتتعرض لتدفق الزوار من الأجانب وتظهر أكبر من حجمها الأصلي وعلى أقل تقدير لا يقل عدد سكانها عن ٣٠,٠٠٠ نسمة بما فيهم الأجانب اذا أخذنا بعين الاعتبار عدد السكان في مدن أخرى ومساحات تلك المدن وطرز بيوتها سعة وارتفاعا وأسلوب المعيشة والمساحة التي هي في الغالب غير مأهولة. وأظن أن عدد سكان «مطرح» يبلغ حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة والقرى المجاورة حوالي ٧٠٠٠ نسمة فأحسن تقدير لعدد السكان من حيث المجموع هو ٤٧,٠٠٠ نسمة.

وفي عام ١٦٥٠م بنى البرتغاليون تحصينات فيها وسبق لهم أن

استقروا فيها لمدة ٣٠ سنة وكانت قلعتهم قوية البنية في مظهرها الخارجي لكن في رأيي أن مدافعها لم تكن في مواقع سليمة ولم تكن في وضع يسيطر على المداخل عند الهجوم عليها من حيث مدى الرؤية وأظن أن المظهر الجانبي للقلعة لا يعطي لها مزايا دفاعية قوية بل ان المرتفعات المحيطة بها تجعل الدفاع عنها متعذرا حتى ولو تغيرت مواقع المدافع التي تدافع عن المداخل.

وعلى العموم فإن مظهر المدينة ومبانيها غير مثير للاعجاب وتقوم مسقط بدور المستودع التجاري لتوزيع السلع وعلى هذا الأساس تزورها عدة سفن كما يزورها الناس من جميع بقاع الجزيرة العربية. وأسواقها المغطاة مزودة بسلع متنوعة وبكميات كبيرة مما يدل على الثروة والرخاء والنشاط التجاري الى حد كبير. وأما الطقس فعلى سبيل المقارنة يمكن الاشارة الى أن درجة الحرارة في عرض البحر هي ٨٢° وفي الميناء ٨٦° بينما تصل الى ٩٠° داخل المدينة. وككل لم تكن أسوأ من بومباي في هذا الفصل من السنة بالذات لكن الحر يزداد في أشهر يونيو ويوليو وأغسطس مما يجعل من الاستحالة على المارة التجوال في الشوارع علاوة على الأضرار التي تترتب على الصحة عامة في هذا الموسم ومع ذلك تنتج البساتين هناك بعض الفواكه ومنها البطيخ والعنب والرمان من أحسن نوع نكهة وطعما. ويمكن وصف الرمان كفاكهة الجنة حقا وعلى الرغم من ان شاعر شيراز ادعى بأفضلية رمان شيراز وفخر به ولكن أظن أن الفضل يعود لرياح الشمال في الصحراء التي تنضجه على نحو مثالي لأنها تفجر قشرته بفعل الحرارة وتجفف العصائر التي تفسد طعمه وتجعله رديئا.

وعقب زوال الامبراطورية البرتغالية في الشرق استعاد العرب سيطرتهم على مسقط بقيادة يوسف بن علي، الذي قتل جميع أفراد الحامية البرتغالية عدا القليل منهم الذين اعتنقوا الاسلام. ومنذ ذلك الوقت ظلت مسقط حرة باستثناء فترة قليلة في عهد نادر شاه لأنه استغل الخلافات القائمة آنذاك بين سلطان بن مرشد والامام سيف بن سلطان ونجح في احتلالها عن طريق حيلة نفذها قائده العسكري ميرزا تقي خان فقد أقام هذا الرجل الماكر المخادع حفلة للإمام وغمره بماء شيراز (الخمور) بوفرة وسرق خاتمه وهو تحت تأثير الكحول وثبته على أمر لتسلم القلاع التي تدافع عن المدينة له. لكن حكم الفرس لم يدم طويلا لأن المنافسين توفيا بعد أن طردهما والى صحار أحمد بن سعيد مستخدما حيلة مماثلة واختاره الناس حاكما عليهم بمشاعر الشكر والعرفان لتحريرهم من نير العبودية للأجانب.

والإمام الحالي السيد سعيد هو

الابن المثالي الثاني لأبيه وكان محبا للوطن، وهو يسكن في قصر بالقرب من البحر وكان هذا القصر يوما ما كنيسة للحرس البرتغالي. ويتمتع هذا الإمام بأهمية كبيرة وحرية كاملة وهو مستقل عن الباب العالي تماما ويتقاسم هذا الجزء من الجزيرة العربية مع كل من أمير مخا والسعوديين ولو بنسب غير متساوية.

وتمتد سلطته على عمان فقط. وحسب التقارير المتوافرة يستطيع ان يجند ٧٠٠٠ جندي من البلوش والسنديين من منطقة «تاتا» المجاورة لكنه لا نظير له بين القبائل كصاحب قوة بحرية لا يستهان بها. ويستطيع سكان رأس الخيمة تعبئة بضعة آلاف من الفرسان وهم يستخدمون الخيول بمهارة في ساحة القتال. وتتكون قوة عمان البحرية من الفرقاطة (كارولين) ذات الـ ٤٠ مدفعا كما ذكرت ومعدات أخرى لا بأس بها ومركبين كبيرين كانا مركبين هنديين وحوالي ٣٠ أو ٣٥ مركبا صغيرا. ومن الصعب علينا أن نقدر طاقتها القتالية بدقة بسبب التفاوت الكبير في البيانات التي تصدر من التجار والضباط المحليين.

ومن حيث اللغة التي استخدمتها مع الآخرين وجدت بأنها مفهومة بقدر كاف وكان بالامكان ان أجمع معلومات أكثر عن الأمور باستفساراتي المكثفة لكني لم أنجح بالقدر المطلوب. ووجدت ان بعض الناس يتظاهرون بأنهم يعرفون أكثر مما كانوا يعرفون حقا كما كان البعض يلجأ الى الافتراء والتشوية لأنهم تعودوا على ذلك دون ان يكون لهم أي هدف آخر، وأظن هذه ميزة سلبية لبعض الشرقيين الا أن لديهم مميزات ايجابية أخرى. ونظراً لأنني حريص على الالتزام بالصدق والدقة فإنني أتجنب ذكر بعض المعلومات التي جمعتها بسبب عدم ثقتي في مصداقيتها وأذكر الأحداث التي أثق بها فقط.

غادرنا مسقط في ١٨ نوفمبر ١٨١٦م ووصلنا عند الظهر الى خط العرض ٣ ٢٤° و تعرضنا للأمطار مساءً مما خفض درجة الحرارة من ٨٠° الى ٧٤° وفي ١٩ نوفمبر لم تتجاوز درجة الحرارة ٨٦° وشاهدنا كسوف الشمس عند خط العرض ١ ٢٥° في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر ولم ينظر العرب والفرس والأتراك الى الشمس مباشرة بل الى انعكاسها في براميل الماء الموجودة على ظهر السفينة. ولم يحدث شيء يذكر في هذين اليومين الا أن العشرين من نوفمبر شهد التوتر والاضطراب فجأة على ظهر السفينة عندما اندلع قتال بين الفرس والعرب. ولم أعرف في البداية ما هو السبب للقتال ونوعه لكني رأيت نائب الربان متورطا فيه وسمعت ربان السفينة يدعو الى سيفه بصوت جهير ففكرت بأنه من الواجب أن أساعده وأفراد

الطاقم البؤساء الذين تصرفوا كأنهم جنود وكانوا يحاولون دفع المتمردين نحو مؤخرة السفينة وقد نجحوا في هذه العملية من حسن الحظ دون إراقة دماء. واكتشفنا فيما بعد بأن الفرس تشاجروا مع طاقم السفينة حول أمر تافه وبدأوا معاقبة أحد أفراد الطاقم بصورة وحشية بمحاولة خنقه ولما أسرع الى نجدته فرد آخر قامت الجماعة بمحاولة خنقه أيضا. وأمضى المتمردون الفرس الليلة وراء القضبان الحديدية في مؤخرة السفينة وهم مشدودون بالسلاسل وفي الصباح التالي وجدناهم مهزومين وكان أشدهم تكبرا يلتمس العفو والرحمة واطلاق سراحه.

وفي ٢١ نوفمبر ١٨١٦ وصلنا الى جزيرة منخفضة صخرية ورأينا هرمز والمعروف أن هرمز اشتهرت بأسماء مختلفة كـ«نكروكين» لدى التتار و«أرمازيا» أو «أورجانا» لدي القدماء. وثروة هرمز ورخاؤها مرتبطة بالعهد الذهبي في تاريخ البرتغال وتاريخ مغامريها الأوائل وسمعتهم، وهم الذين اكتشفوا الطريق البحري الذي نسلكه اليوم ولا يجوز لنا أن نمر به بصمت واستخفاف واهمال لمنجزاتهم. وفي الحقيقة فإن الفرصة تتاح للرحالة لمشاهدة التغييرات التي طرأت على الأماكن والظروف التي تحيط بطريقه كل مرة يسافر فيها.

وفي القرن الحادي عشر أسس فاتح عربي مدينة على أرض قاحلة في جزيرة جمبرون وأصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة لامبراطورية ممتدة من الشواطىء الايرانية الى الشواطىء العربية كما انها أصبحت مستودعا للبضائع التجارية وهمزة وصل بين الهند وأقاليمنا بمناخها الخاص وتوافرت للجميع هنا تسهيلات سكنية ممتازة أحسن من أية مدينة شرقية أخرى آنئذ، وحشدت هناك نساء جميلات من كل بقعة من قارة آسيا متدربات منذ الصغر على فن الاثارة وإبهاج الحواس الجنسية وتعرض هاته النسوة أنفسهن على الناس للاستمتاع بهن ويتمايلن أمام التجار والأجانب الأغنياء الذين يعرضون ثروتهم عليهن مقابل ابتساماتهن المغرية. كان الهواء يحمل في طياته روائح عاطرة والفرش مغطى بسجاجيد فاخرة خلابة الألوان فكانت جمبرون بذلك تنافس مدنا أخرى تقوم بدور مماثل في الأزمنة القديمة. لكن الآن رجعت المدينة الى ما كانت عليه قبل ازدهارها أي الى أرض قاحلة عليها قرية بائسة وفيها بعض الفقراء العرب في محل كان ينغمس فيه الملوك والأمراء في مرح صاخب وترف شديد الزخرفة. ونحن نعرف اليوم تاريخ إضمحلالها وإنحطاطها. فقد فتحها البوكرك الشهير في عام ١٥٠٧م واستردها الفرس في ٢٥ ابريل عام ١٦٢٢م

بقيادة شاه عباس الأعظم وعقب هذه الفترة نقل جزء من نشاطها التجاري الى بندر عباس حيث سمح لنا (أي الانجليز) بفتح مكتب تجاري كما انتقل عدد من التجار الأغنياء الى مسقط على الساحل العربي.

سببت العواصف لنا في الأيام التالية كثيرا من الازعاج لأن الرياح كانت معاكسة لاتجاهنا فأرسينا وصادفنا مركبين من طراز «الداو» بالقرب من جزيرة «كين» وهما من مراكب القراصنة وكانت هذه الجزيرة مقرا لهم وتغلبنا على مخاوفنا لأننا كنا أقوى منهم فلم يجرؤوا على مهاجمتنا وعلمت بأن سفينتنا تعرضت لهجومهم في مرة سابقة ونجحت في التصدي لهم رغم أن هؤلاء اللصوص الوحوش وهم رجال خارجون على القانون قساة القلب وليس لهم أدنى علاقة بالسلوك المتمدن أو الاعتماد على تصرفهم أو الثقة فيهم. ورغم كل ذلك فأن تصرفاتنا (أي الانجليز) تدعو الى الخجل لأننا تعاملنا مع هؤلاء الهمجيين بارسال الوفود والبعثات لهم وعقدنا معهم اتفاقات مع العلم بأنهم استغلوا قوتنا البحرية لصالحهم ضمانا لأمانهم فقط. وهذا التصرف كان بمثابة وصمة عار على جبيننا. لو كان ذلك ضمن حرب قانونية لكان له مبرر لأن الحرب لها ضوابط وقوانين وأعراف معترف بها دوليا بصفة عامة وهناك نوع من الثقة تربط بين الدول المتحاربة المتمدنة على أساس متبادل حول مسألة الأسرى لكن القراصنة يقتلون أسراهم على الفور بصورة بشعة دون استثناء ويشوهون أجسادهم وفي وجه هذه الوحشية فان معاملتنا لهم تدل على ضعفنا وبل مشاركتنا في جرائمهم.

يتكون القراصنة في منطقة الخليج من قبائل عربية شتى. وحكومتنا غير راغبة في مواجهتهم مما يجعلهم يفخرون بحصانتهم. ولديهم اسطول مكون من ٦٠ سفينة كبيرة وحوالي ٩٠٠ سفينة صغيرة وقوامها حوالي ١٩,٠٠٠ نسمة. ويرجع تاريخهم الى زمن بعيد كامبراطورية لملك القراصنة الذي نهب كل سفينة قيّمة (وجاء ذكرهم في كتاب لابن حوقل) قبل خروج بني اسرائيل من مصر.

وقد ثبت ان القراصنة يعملون ضد المصالح التجارية البرتغالية وكذلك ضد مصالحنا التجارية وتحمل سفنهم أحياناً ٤٠ قطعة من المدافع و ٣٠٠ مقاتل. وفي عام ١٨٠٨م قبضوا على طراد لشركة الهند الشرقية يسمى «سلف» وكان على متنه السكرتير الفارسي الذي كان ملحقاً ببعثتنا وبدأ القراصنة في قتل افراد الطاقم حتى وضعت سفينتنا «نرايدى» حداً للمذبحة وانقذت الباقين على قيد الحياة ثم اطلقت النار على القراصنة وأغرقتهم بعد قتال كثيف عنيف. وعقب هذا الحادث تعرضت السفينة

التجارية «منيرفا» بقيادة الكابتن هوب جود لهجوم من أسطول مكون من ٥٥ مركباً ومنها عدد من سفن الداو وعليها ٥٠٠٠ مقاتل. واثر قتال دار من الطرفين من بعيد ليومين اقترب القراصنة من السفينة وصعدوا أخيراً على متنها وما كان امام الكابتن هوب جود إلا أن أصدر أمراً لمساعده أن ينزل الى مخزن الذخيرة ويشعل النار في البارود. وكان المنظر على السفينة مخيفاً للغاية ولا يمكن وصفه لأن الكابتن كان يلفظ انفاسه الأخيرة اثر جرحه وسلم لمساعده المسدس لينفذ أمره بتفجير السفينة ولو حدث ذلك فعلاً ونفذت أوامره لكان مثالاً رائعاً لثبات الإنجليز في عزمهم وعنصراً مناصراً للملاحين مستقبلاً لكن مساعد الربان لم يقم بواجبه بل اختبأ في أسفل السفينة، وانتهت المقاومة على ظهر السفينة بعد قليل وبدأت المذبحة والقتل الوحشي وفقاً لطقوس خرافية وكان هدفها بذر الخوف والذعر فيمن حولهم . وتم تنظيف السفينة وتطهيرها بالماء والأدعية والعطور ثم جاءوا بالاسرى جماعات وأفراداً مقيدين ومكبلين بين هتافات التكبير المرفوعة من كل جهة وعرض كلهم أعناقهم للذبح بالسكين وتمت العملية فعلاً. ولم ينج أحد إلا واحدا أعمى أطلقوا سراحه في الميناء التالي كي ينقل الخبر المشئوم للآخرين.

وفي عام ١٨٠٩ نفد صبر حكومتنا لأن القراصنة وضعوا حداً لأنشطتنا التجارية بواسطة هجماتهم الجريئة على سفننا فقامت بتنظيم حملة تأديبية تحت قيادة الكابتن «وين رآيت» والكولونيل سميث. ونزلت القوات على شاطىء رأس الخيمة واحتلته ودمرت ٥٣ سفينة كبيرة لهم ثم هاجمت موانيهم الأخرى وقام القراصنة بالدفاع عن «شناص» ونظراً لأن القراصنة لا يرحمون أسراهم قط كانوا يتوقعون نفس المعاملة من معتقليهم فيدافعون عن قلاعهم بحزم حتى آخر لحظة ويرفضون الاستسلام ويرمون قنابلنا اليدوية والقنابل الأخرى بعيداً عن مواقعهم قبل انفجارها. ورغم ذلك ورغم غيظهم الشديد فلم يستطيعوا مواجهة ضرباتنا ويلتزموا الصمت لعدة سنوات بعد تنفيذ العملية من جانب قواتنا. ويرجع السبب لهذا الصمت الى نقص الخشب لإعادة بناء السفن لتحل محل السفن المدمرة وإلا عادوا لمواصلة عملياتهم كالمعتاد لأنهم تعودوا على القرصنة كأمر طبيعي. وفي عام ١٨١٦م أبدى القراصنة ميولهم المتزايدة في ممارسة مهنتهم الإجرامية وقد أصبح من الضروري أن نقمعهم بالقوة.

ان الأسفار البحرية عامة ليس فيها ما يشوق المسافرين وهي تملؤ قلوبهم بالملل والضجر بسبب رتابة المناظر وتكرارها يوماً بعد يوم من البحر والسماء دون حدث قد يشغل

بالنا أو يريحنا. لكن سفري هذا كان مليئاً بالمفاجئات والمغامرات والأخطار أكثر مما قد يرحب به أي مغامر شجاع في أي وقت. وبعد ما تجاوزنا الأخطار الناجمة عن الصخور وحادث التمرد والقراصنة سمعنا إنذاراً ملحاً بصوت جهير من ربان السفينة في ٢٨ نوفمبر ١٨١٦م صباحاً ينادينا للدفاع عن أنفسنا وإلا تعرضنا للذبح جماعياً ولبينا النداء على الفور لأننا كنا قد تعودنا على حمل السلاح عند النوم وقبل أن امسك المسدس والسيف في الظلام فتح الباب فجأة وتعرضت لهجوم بالسيف لكن الطعنة لم تسبب لي إلا جروحاً خفيفة. فقفزت على المهاجم ونزعت السلاح منه فوجدت فيما بعد بأنه ليس إلا ربان السفينة ومن حسن الحظ انه اخطأ في ضربة سيفه فلم يصبني إلا بجروح تافهة وكذلك لم أصبه عند تجريده من السلاح إلا بجروح تافهة. ويبدو أن صاحبنا ظن نفسه معرضاً لهجوم فأثار الضجة دون أن يكون هناك أي مبرر لها. والغريب أنه كرر نفس التصرف فيما بعد وأضطررنا أن نفرض عليه بعض القيود اجبارياً كي نمنعه من ذلك لأنه كان في حالة نفسية سيئة. ووصلنا الى بوشهر في ٤ ديسمبر ١٨١٦م وقبل ذلك جنحت السفينة مرتين.

ولما وصلنا الى بوشهر وجدنا ان المقيم (المستربروس) ليس موجوداً بل كان في بعثة للقراصنة في رأس الخيمة ضمن واجباته الرسمية وكان ينوب عنه مساعده الدكتور «شارب» الذي بذل جل اهتمامه لرعايتي لأنني كنت المسافر الوحيد الذي بقى على متن السفينة آنذاك وتعامل معي بلطف وكرم بالغ. ونظراً لأن السفينة كان متوقعاً لها أن تبقى هناك لبعض الوقت أردت زيارة شيرازو سابور في هذه الفترة لكنني لم أستطع أن أقوم بذلك واكتفيت ان اتجول في السوق وفي المناطق الداخلية وأسأل الناس عن الأوضاع السائدة في ايران وعن تاريخ بوشهر بصفة خاصة كما يفعل الرحالة.

وكان تاريخ ايران القديم معروفاً ومفهوماً اكثر من أوضاعها المعاصرة منذ اهتم الجنرال السير مالكولم : سفيرنا السابق لدى البلاط الملكي بالموضوع. وعقب امبراطورية ملوك البارثيان تولى الحكم خلفاء «سليوكس نيكاتور» الذين قاتلوا أباطرة روما وانتصروا احياناً وخسروا احياناً أخرى. وفي ظل الظروف التي برز فيها الرحالون أسس كل من «تانغرولبكس» وهو تركي، و «الاهون» (او الله خان) التتري سلالة للملوك وجاء بعدهما «التركمان» و «الصفويون» وعقب وفاة «طهماس كولى خان» (نادرشاه) الذي تولى منصب الجنرال وقضى على الصفويين انتشرت الفوضى مما جعل من المستحيل لأحد أن يتابع الأحداث والتواريخ بدقة لأن عدداً

كبيراً من الأشخاص لعبوا دوراً على المسرح لفترة وأختفوا فيما بعد وأكثرهم نفوذاً كان محمد حسن خان وهو رئيس قبيلة «قاجار» الذي تولى منصب القائد العسكري تحت حكم آخر حكام الصفويين ولا يزال يحكم خلفاؤه حتى الآن. وكان آغا محمد خان، ابنه الثاني قد تغلب على لطف علي خان (الحاكم الأخير واكبر خلفاء كريم خان نفوذاً) واستعاد السلطة ونقلها الى الملك الحالي وهو ابن أخيه الأكبر الذي قتل في المعركة على يد التركمان.

ان عهدي حكم كل من كريم خان ولطف علي خان يحتاجان في الوقت الحاضر الاهتمام بهما بسبب إرتباط احداث عهديهما بتاريخ بوشهر فلا يجوز لاي رحالة ان يجهل هذا التاريخ. وكان كريم خان أصلاً لصاً كردياً من قبيلة حقيرة تسمى «زند» لكنه نال شهرة بسبب شجاعته وقتله محمد حسن خان ثم أسس سلطة سيطرت على توابع شيراز لفترة قصيرة عندما كانت السلطة الملكية مفقودة. وعلينا أن نبدأ بسرد تاريخ قصير لبوشهر لأن أهميتها ليست بكبيرة ولا تستحق الا ذكر تاريخها باختصار. وتقع بوشهر في منخفضات ولاية دشتستان في شريط ضيق من الأرض تراجعت عنه مياه البحر وجاء ذكرها في كتابات «نيركس» وكانت مقراً لاحدى الدويلات العربية وكانت سياسة كريم خان تركز على قمعها وتدميرها لكنه في عهد الشيخ نصر جد الوالي الحالي، بلغت هذه الدويلة ذروتها في الرخاء والإزدهار والنفوذ.

ويرجع ذلك الى تصميم الشيخ نصر ومجهودات ابنه في هذا السبيل عقب وفاة ابيه.

ويعتز العرب حتى الآن بذكرى هذا الزعيم لكرمه وللمثل العليا التي تسمو اليها قبائل دشتستان. وعندما كانت المنافسة على اشدها بين عبدالرسول ومحمد رسول وهما حفيداه من أجل السلطة فإن هذه المنافسة لم تصل لدرجة العنف والصراع بشكل غير طبيعي مثلما هو مشاهد بين اعضاء العائلات الشرقية. وكما يبدو فإنهما تراضيا على ان يحكما بالتناوب. ويظهر ان الإعتدال في تصرفاتهما في الحقيقة يرجع الى تقلبات الزمن والالتباس في السلوك الشخصي الأخلاقي الناجم عن تجربة مريرة لحقت بعبدالرسول عندما القي القبض عليه في وقت مضى ونقل الى شيراز دون أدنى احترام لشخصيته أو مراعاة لمشاعره وكان السيرهارفورد جونس هو سفيرنا لدى البلاط الملكي في ايران.

وكانت لمدينة بوشهر ظروف خاصة من حيث موقعها ونوع حكومتها مما جعلها ملاذاً مفضلاً للاجئين والهاربين البارزين الذين تعرضوا للصراعات الداخلية أو الضغوط المسلحة فاضطروا للفرار

رغما عنهم. وسبق لي أن ذكرت إرتباطها الكريم والحميم بكل من عبدالله آغا والسيد علوي من باشاليك بغداد وهما من اسياد بغداد وكانا غادراها قبل قليل من وصولنا اليها وسيأتي ذكرهما لاحقاً. ومن بين اللاجئين الذين لا يزالون موجودين هنا يمكن ذكر زوجة الوزير الثاني للامبراطورية التي كانت سابقاً أرملة الحاج خليل خان السفير الايراني الذي قتل في بومباي لسوء الحظ. و كذلك يمكن ذكر حاكم سابق مسن وأعمى يقضي أياماً بائسة في حياته الشاقة معتمداً على كسبه المتواضع من ممارسة الطب البيطري وهو لا يزال متمسكاً بكرامته وعلى الرغم من انه فقد عينيه بسبب إدخال سلك معدني فيهما إلا أنه بمجرد لمسه وسمعه للخيول يقوم بتقييمها وشرائها بدقة تامة مدهشة للعقل.

وكان حجم تجارة بوشهر لا يستهان به لأنها الميناء الرئيسي لايران ويمكن للسفن الوصول الى المياه الداخلية الموصلة الى الشوارع حتى لعمق ١٨ قدماً وتزورها السفن الحربية والطرادات والمراكب من طراز الداو والمراكب الصغيرة بأعداد كبيرة كما تزورها ١٠ أو ١٢ سفينة تجارية هندية كبيرة بانتظام وتمارس النشاط التجاري مع بلدان الخليج تحت حماية العلم البريطاني وتقوم حوالي ٧ أو ٨ منها بزيارة الميناء مرتين في السنة. وتشمل حمولاتها القماش من ألوان غامقة يستخدمها الفرس خاصة اللونين الأزرق والأخضر لملابسهم وكذلك البضائع الاستهلاكية المصنوعة في سرت والبنغال والتمور والبن والأرز والأسلحة وتشحن السفن عند العودة بالسبائك الذهبية أو الفضية والحرير من يزد وكاشان والحرير الأحمر من جيلان والسجاجيد من اصفهان والصوف من كرمان والأعشاب الطبية من ازبك والخيول والبغال وماء الورد والنبيذ من شيراز والقطن والفواكه المحفوظة.

ويظن البعض بأن هذا الحجم من النشاط التجاري لا بد أن يعطي للمدينة مزايا الفخامة والإزدهار في مبانيها وأسواقها وتسهيلات عديدة تمشياً مع أهميتها لكنها في الحقيقة عكس ذلك. فإن مستواها احط من المباني والأسواق الموجودة في مسقط أو البصرة ولا يزيد عدد المباني ذات المستوى الجيد على ١٢ أو ١٥ مبنى والأخرى هي بيوت صغيرة مصنوعة من الحجر وعددها حوالي ٥٠٠ وتوجد ٦ مساجد في المدينة و ٣ حمامات و ٤ خانات وأكواخ عديدة ويبلغ عدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة. ويوجد سور حول المدينة مكونٍ من جدار قديم و ١٢ برجاً مهدماً غير صالح لأغراض دفاعية.

ولم أستطع أن أجمع معلومات أكثر عن بوشهر بسبب عنصر الارتباك في مدة الوقوف هناك، وكما حدث طال الأمد أكثر مما كنت اتصور

وأطول من الوقت المطلوب للإستطلاع والاستمتاع بها، وأمضينا آخر أيام الانتظار في ملل وضجر باستثناء حدث ما دعا الى القلق. فكانت هناك بنت ضعيفة عمرها حوالي ١٦ سنة واكتشف بأنها ارتكبت جريمة مباشرة الجنس مع نصراني وحكم عليها المسئولون بالاعدام وفقاً للشريعة الاسلامية وأخذها الناس ليلاً الى مصيرها المحتوم ولا يمكن لي أن أسرد التفاصيل لأسباب خاصة لكن الحدث الذي اشرت اليه مؤشر لسلوك العرب القاطنين على الشواطىء، ولو حدث ذلك في ايران لما كانت عاقبته إلا دفع غرامة تافهة للقاضي.

ويوم مغادرتنا بوشهر صادفت رحالة قد جاء الى هذه المناطق بسبب ظروف الحرب، وحاول هذا الرجل أولاً أن يتنكر كأنه ذو شأن وتكلم باللغة الفرنسية بشكل خاطىء واكتشفت فيما بعد بأنه أسير روسي عاجز عن الموارد المالية وكان حريصاً على ان يعود الى بلاده عن طريق البصرة أو بغداد. وكان ما حكاه لي هذا الشخص قابلاً للإعتماد عليه من حيث المصداقية لأنه يوجد عدد كبير من هذا النوع في كثير من المناسبات. وفي نفس الوقت شعرت بأنه يوجد أشخاص على متن السفينة لا يتطابق كلامهم ومظهرهم وإدعائهم بالحقائق. لكني لزمت الصمت ولم أتدخل في شئون ربان السفينة في هذا الشأن لأني كنت على يقين بأن الكابتن قد حصل على تعليمات من المقيم بهذا الخصوص.

ووصلنا الى «خرج» في ١٣ ديسمبر ١٩١٧ وليست (خرج) إلا جزيرة رملية واطئة حيث يتم فيها إختيار مرشدي السفن. وهذا المكان جدير بالإهتمام في إستعراض المستوطنات الأوروبية في الشرق لأنه يقع على مصب شط العرب وعلى هذا الأساس إستفاد منه «بارون نيفاوسن» المقيم الهولندي في البصرة. وتعرض نيفاوسن لنهب كافة أمواله ثمناً لإطلاق سراحه وما كان أمامه إلا أن يلجأ الى «خرج» ومعه ٥٠ من اتباعه المغامرين الشجعان ومن هناك انطلق بعملياته الضارة ضد المصالح التجارية للاتراك مما اجبرهم على تجديد الامتيازات التجارية التي كانوا قد رفضوها من قبل. وكان البرتغاليون يوماً ما يملكون هذه الجزيرة ولا تزال آثارهم موجودة هنا كبيوتهم والكنائس رغم محاولة مكثفة لمحو هذه الآثار. وتتميز هذه الجزيرة باحتلال الموقع الذي يسيطر على تجارة كل من بوشهر والبصرة وبغداد. كما تسيطر هرمز على الخليج بشكل مماثل وانشاء حامياتنا في هذه الجزر مدعمة بتفوقنا البحري يضمن لنا أمن تجارتنا على أسس سليمة دون أن يكلفنا أكثر مما نتحمل في نفقات البعثات الثلاث التي تعمل الآن. وان سلامة تجارتنا واستمرارها حالياً

تعتمد على نزوات الارقاء المتغطرسين. وإذا انشأنا حامياتنا في هذه الأماكن نكون في موقف أفضل تجاه دول الخليج بالإضافة الى توطيد نفوذنا في البلاط الملكي الايراني ونستطيع ان نفرض على هذه الدول نوعاً من الحذر والاحتياط في تصرفاتها كما يمكن لنا أن نتظاهر عند الاقتضاء بتقديم تنازلات لمزاعمهم ونظراً لموقع الكرامة والوقار الذي نتمتع به كقوة رائدة في الشرق علينا أن نستغل تفوقنا البحري لصالحنا لأننا نتعرض للغيرة والحسد ويجب ان نتعامل من موقع القوة. وعلى الرغم من ان الناس يحترمون قوتنا إلا انهم لا يفهمون قوامها بسبب ضعف سياستنا نحو القراصنة حتى نحو اضعف جماعاتهم. وبخصوص الهدايا التي تقدم للبلاط الملكي الايراني فإنهم ينظرون اليها كأنها خراج ندفعه لهم. وللعلم فإن روسيا تسلك نهجاً مختلفاً في سياستها تجاه ايران وتتعامل معها من موقع القوة على كافة المستويات وتملي عليها ما يجب ان تقوم به. في حين نأمل ونرجو أن يكون تصرفها وفقاً لوعودها التي كثيراً ما تكون خادعة أو وهمية وتفتقر الى الجدية ومؤدية الى خيبة الأمل عند التنفيذ. وأمامنا مثال رائع لفاعلية سياسة القوة وكيف يكفي حتى قدر تافة منها ليضمن النجاح. فلدينا قوة أكبر وقدرات أكثر ويتمتع سلوكنا باحترام أكثر وسياساتنا مستنيرة أكثر من البرتغاليين والهولنديين ويتضح هذا في الفترة التي انتصرت فيها أساطيلهم في الخليج وتحدت كلاً من الايطاليين والايرانيين والاتراك. وما علينا إلا أن ننتهز الفرصة لأقصى حد لإستغلال ميزاتنا ونفوذنا خاصة في ايران مما يضمن لنا استمرار وأمن الأمبراطورية التي انشأناها.

وغير موقعها المركزي تشتهر «خرج» بآثارها الباباوية المسيحية الخرافية التي تركها البرتغاليون كالعادة تذكاراً لمجدهم العسكري وتعصبهم الديني. وقد تم تحويل احدى كنائسهم الى ضريح مقدس لـ «بير محمد». وتوجد الصلبان والطابوق الملون والاشياء الأخرى التي ترجع أصولها الى الكنيسة السابقة والشيء الذي تغير هو مجرد الإسم والشكل ولا يزال هذا المبنى يشيع الإحترام الديني نحوه. ويقع المدخل لهذا الضريح أو الكنيسة عن طريق سرداب طويل أو قناة وكانت تستخدم في الماضي لنقل الماء من جانب جبل يقع أمامها وتوجد ثقوب في السرداب على فواصل متتالية من أجل دخول الضوء والهواء. ويبدو من هذه الميزة المعمارية بأن «خرج» كانت غنية سواء من حيث عدد السكان أو ثروتها لكن في نفس الوقت توجد كهوف في جهة الجنوب منحوتة في الصخور مما يعطي انطباعاً سلبياً عن مستوى سكان المدينة الذين اتخذوا الكهوف سكناً لهم.

اظن انني أطلت في هــذا الــوصف لجزيرة «خرج» وهو ما تستحقه لكني أعتقد بأنـه يفيدنا لاحقاً إذا قـررنا في المستقبل استغلال مزاياها لصالحنا واخترناهـا موقعاً قـد ينفعنا فـالقلعة التي تحمي المدينـة في مكـان الإنـزال مصنوعة من الحجر وفيها ٤ أبراج في الجهات المختلفة ومنصة منهدمة أمام بابها بالقـرب من البحر ويمكن نصب ١٢ قطعة من المدافع عليها.

وفي رأيي أن جـزيرة البحـرين هي المكـان الـوحيـد الـذي يبقى الآن لـلاهتمام بـه في ميـاه الخليج ونحن نـواصل رحلتنا. وتشتهـر البحـرين بمغـاصاتها وآبـارها من الماء العـذب التي تتـدفق في اعماق البحـر في نقـاط معـروفـة ويجمـع الغـواصـون الماء العـذب منهـا ويجلبـونـه الى السطح. وليس عنـدي معلـومـات كثيرة عن الوضـع الحـالي للمغاصات لكن اللآلىء التي رأيتها في البصرة نوعاً وعدداً تدل على أن المغاصات لا تـزال غنية. وقال النـاس بأن لـؤلـؤ البحـريـن أكثـر استدارة ولمعاناً من لـؤلؤ سيلان لكنه يفقـد لـونـه بسرعـة أكبر وينخفض سعره تدريجيـاً في فترة الثلاثين سنة الأولى من اخـراجه. وقـد تكون هـذه الملاحظـة مجرد ظنون لكنهـا سـائدة بين الناس وهم يدعـون بأنه لن يتغير بعد هذه الفترة.

ويستغـرق السفـر من البصرة الى بوشهر عمومـاً يومين لكن السفر من بوشهـر الى البصرة يأخذ وقتـاً اطول ولم نصل الى الحاجـز المالي حتى ١٥ ديسمبر ١٨١٦م وأمضينا ستـة أيام أخرى ونحن نتخذ مسـاراً متعرجاً في النهر ومـررنا بقلعتين طينيتين في ١٩ ديسمبر ١٨١٧م وسـابقاً كـان يقـام سلسلـة أمـام القلعتين لتعـرقل سير السفن. وأحـد طـراداتنـا تجنب هـذا العـائق المائي ونجح في إجتيـاز هـذا الموقع من يمين السلسلـة ممـا بعث بموجة من الدهشـة في قلوب اعدائهم. ووصلنـا الى البصرة في ٢١ ديسمبر ١٨١٦م حيث تلقيت فيها ترحيباً حاراً واستضـافـة شخصيـة من المقيم الدكتور «كولكوهون» ومقيمنا هذا في البصرة يتمتع بسمعـة طيبـة عنـد الكثيرين لكـرم ضيـافتـه وحسن استقباله.

ونحن نـودع موضـوع تجارتنا في الخليج الآن نقـول ان حجمهـا كيفـاً وكماً لا يستهـــان بـــه ويستحق التشجيع لأن الأرباح مضمونة وتأتي بسرعة مما يخدم المصـالح التجارية. في هـذا الـوقت كانت السفن التـاليـة تجوب المياه الخليجيـة «خسروى» و «صـوفيا» و «مـاري» و «اليـزابيث» وعـدد كبير من المراكب الشراعيـة. وهكـذا بلـغ عـدد السفن التجـاريـة الكبيرة ستاً ومعها ٤ طرادات للشركة وفـرقـاطه واحـدة ومـراكب صغيرة أخرى. فإذا تجاهلنا الأطراف الأخرى نجـد أن ٨ أو ١٠ سفـن كبيرة تقـوم برحلتين سنوياً من بومباي و ٣ سفن تقوم بـرحلة واحـدة من البنغال وإذا

أخذنا بعين الإعتبار حمولة كل سفينة في المتوسط بواقع ٣٠٠ طن فتبلغ مجموعة الشحن التجارية حوالي ٧٠٠٠ طن في ظرف عام واحد وهذا دون ان نحسب الأسطول البحري والمراكب الصغيرة التي تقوم برحلات صغيرة من محطة الى محطة. وتتضاعف الحمولة للرحلات المرجعة الى ١٤٠٠٠ طن وهذه كمية ذات أهمية لو كانت مستخدمة لأغراض تجارية فحسب، ويتكون طاقم السفينة من ٥٠ الى ٨٠ عاملا وربان السفينة واثنين من مساعديه ويمكن لنا ان نحسب الخسائر الناجمة عن البلى والتمزق والضياع بواقع ٢٠٠٠ روبية شهرياً لكل سفينة من بومباي ومبلغ اكثر لسفينة من البنغال لأنها تستخدم عدداً أكبر من الأوروبيين.

وقد تكلف كل سفينة حوالي ٦٠,٠٠٠ أو ٧٠,٠٠٠ روبية مع مدافعها ومعداتها وتكلف رحلة واحدة ١٢,٠٠٠ أي ٢٤,٠٠٠ روبية لرحلة مرجعة ويعني هذا استثمار رأسمال قدره ٦٠٠,٠٠٠ روبية أو ٧٠,٠٠٠ جنيه ويساوي عقد رهن لصاحب السفينة مقابل مال يقترضه للقيام برحلة وتصرف السفينة ٤٨٠٠٠ روبية سنوياً من أجل نفقات الملاحة وفوائد الموجودات الثابتة واستبدال السندات المالية الأولية. ولا تقتصر الفوائد على هذه المفردات التي نكسبها باستمرار بسبب الانتقاص في سعر التبادل في العملة.

واننا لن نكشف عن حجم صادراتنا بدقة أو عن عائداتنا أو حجم الضرائب الجمركية على صادراتنا ولا شك ان الأرباح التجارية متناسبة مع حجم الإستثمار وتعمل لصالح بيت المال. وعلى الرغم من صحة ربحية التجارة كما ذكرنا آنفاً حسب المعلومات التي جمعتها الا انها غير معروفة وغير مفهومة عامة وقد يأتي الوقت حيث يزداد وعي الناس في الموضوع بدقة أكثر ويحثهم على المنافسة في مباشرة هذا النشاط للانتفاع به حقاً.

وبخصوص البصرة لا أريد أن أصفها باسهاب لأن كثيراً من الرحالة أوردوا وصفها في كتاباتهم. فبناء هذه المدينة متواضع وهي ليست نظيفة غير أن مناخها لطيف وصحي وتجارتها رابحة ويقال أن عدد سكانها ٨٠,٠٠٠ وهذا عدد متواضع وأقل مما كنت اتصوره قبل ان يصيبها وباء الطاعون. وغالبية سكانها من العرب ولهم التفوق مالاً ونفوذاً ويملك أصحاب الأرض الكبار اقطاعات واسعة ولديهم من ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ نسمة من تابعيهم داخل وخارج حدود المدينة ومعظمهم خارج القانون ولا يمتثلون إلا لأوامر زعيمهم فإن موقف المتسلم (التركي) متزعزع سواء كان من ناحية الأمن أو الراحة ويرأس هذا الوالي حوالي ١٠٠٠ جندي من أجناس مختلفة ويفرض عليهم نوعاً من الإنضباط

ويـدفع لهم رواتبهم بـانتظـام ويستخدمهم كالشرطـة داخل أسوار المدينـة كلما اقتضى الأمـر أو عنـد نشـوب الصراع الداخلي بين الـزعماء الكبار. ولكـن خارج أسـوار المدينة لا يـوجـد أي أمـان لأن البـدو يملكـون الصحراء وهم يحافظون على حريتهم كالمعتاد.

ويقال ان البصرة تأسـست في عهد أبـاطـرة رومـا وكـانت مسقط رأس «فيليب العـربي» ويقسمهـا خليج صغير الى قسمين وأسوارها الوضيعة مصنـوعـة مـن الطين وفيهـا أبـراج دفـاعيـة دائريـة. وتنتشر البسـاتين والنخيل مـا بين الخليـج والأسـوار. ورغم ان محيط الـدائرة يمتـد الى ٨ أميال إلا أن المساحة التـي توجد فيها المبـاني لا تزيـد علي نصف المساحـة الإجماليـة. وعلى الـرغـم من إتسـاع مسـاحتهـا وضعف تحصينـاتها الـدفـاعيـة إلا أنها تصـدت للغزو الايـراني مـرتين ولم تسقط في أيـدي كـريم خـان إلا بعـد حصـار طـويل. واثنـاء تـوقفي في البصرة لاقيت من حسن الحظ عدداً من أشخاص طيبين وتمتعت بكـرم ضيـافـة الـدكتـور «كولكـوهون» المقيم الـذي كان يملك أصطبلاً فيـه حوالي ٥٠ فرساً عـربياً أصيلاً.

وقد اعطانا الدكتور فرصة ركوبها في الصحراء وأمضيت بعض الوقت في قراءة الكتب وزيـارة الحمامات. وقبل تجوالنا في الصحراء تلقينـا النصيحة بعدم الخروج بأنفسنـا كيلا نتعرض لـلإهانـة لكننا لم نلتـزم بها وأود أن أسجل هنا تقديرنا لأهل البصرة الذين لم يسببوا لنا أدنى مضايقة أو ازعاج داخل حدود الأسـوار بل تلقينا منهم سلوكاً محترماً لائقاً بـرتبنا ودرجاتنا العسكرية. لكن الأمر ليس كذلك في كل مدينة شرقية.

ولقد أبـدى أهل البصرة تقديـرهم لسيرة الانجليـز.

ولما وصلت الى البصرة أخبرنا المقيم عند زيارتي لمنـزله بأنني لن أستطيع أن أغـادر إلا بعد مـدة ليست بقصيرة فـوجـدت أن السبب يـرجع الى الإضطـرابـات التـي نشبت في «باشاليك» بغـداد. ولقد علمت بأنه تم تعيين باشـا جديد لبغداد لكن البـاشا القـديم لم يكن راضيـاً بترك منصبـه وكان كل منهما قد حشـد انصاره من الجنود وكـانت قد مرت ستـة شهور على الصراع دون أن يحسم. وقـد عـرفت أنه لم يقتل احـد من الجانبين. وبصفتي رحالة كنـت حريصاً على أن أواصل مهمتي في أقـرب وقت ممكن وتمنيت لهما نهايـة قصيرة لمحنتهما إلا أنني شعـرت بـأن تفكير الإنسـان كثيراً ما يتمشى مع منصبه وقد يوجد أشخاص مثلي يعتبرون بـأن الإزعاج الـذي تعـرضت لـه هـذه المرة بسبب التأخير الذي فـرض علي أسهل بكثير من المرتين السابقتين.

ورغم أنه يستحيل إستعادة الوقت الذي فات إلا أن استبـدال رأس بآخر

أصعب بكثير. وفي ضـــــوء تسليح الإثنين من الباشــاوات واحد في داخل العــاصمة والثــاني خـارجها ونظـراً لإنقسام البلاد الواقعة ما بين البصرة وبغـــداد الى المعسكـــرين المعـــاديين المتساويين لم يبق أمــامي أي خيار إلا التــزام الصبر برهـــة واغمــر نفسي في جمع المعلـومــات عن البلاد العــربيــة وعاداتهم وتقاليدهم لأقصها ليس على أساس ملاحظاتي فحسب بل في ضوء ملاحظات الآخرين مدعمة باختباراتي الشخصيـــة مع العـــرب وهم قـــوم يتصفــون بصفــات فــوق العــادة كما اكتشفت عندما عشت معهم لمدة شهر في خيامهم في الصحــراء وأثناء سفري من البصرة الى بغداد ومــا تلقيت منهم إلا لطفاً رقيقاً وكرمــاً بالغاً الى أقصى حـــد ممكن لأي إنســان أن يتمنــاه.